الفصل الثانى

الطب الفرعونى

كان الأطباء يتمتعون بمكانة طيبة فى المجتمع المصرى – وكان ينظر إليهم نظرة ملؤها التقدير والاحترام – فقد لقب الفرعون « زوسير » باسم « سا » الشافى الإلهى ، وروى مانيتون أن الملك أثوثيس نجل الملك مينا ألف كتاباً فى التشريح – وأن الملك أوزيفايوس حقق تقدماً كبيرا فى علم التشريح – وكان يسمى الطبيب العلمانى « سينو » والرمز الهيروغليفى لهذه الكلمة مكون من قنينة ومشرط « » ولم يميز بين الطبيب – والطبيب البشرى .

وكان فى مصر القديمة **أطباء موظفون** : وهم أطباء البلاد والحكومة والجيش ، وكانت ألقابهم رنّانة فمثلا رئيس الأطباء يسمى « مدير بيت الصحة – ورئيس أسرارها فى بيت تحوت » .

والمعروف أن مثل هذه الألقاب كانت تخلع على كبار الموظفين حتى وقت قريب فى العهد العثمانى – وكانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة – الأمر الذى جعل علاج الفقير مَضمُوناً وكانوا يتبعون الجيش فى تحركاته حتى إنه نَشأَت فئة خاصة وهى فئة « الأطباء العسكريين » ولايوجد أى أثر لأى وصْفَات (روشتات) يتركها الطبيب للمريض .

وأما قطع الخزف « أوستراكا » التى وصفها « جونكير » فالغالب أنها كانت مذكرات كتبها طبيب عند زيارته للمريض للاسترشاد بها عند تحضير الدواء بعد

عودته إلى منزله – والظاهر أنهم إلى جانب أعمالهم الرسمية كانوا يزاولون مهنتهم من أجل الجمهور – ويتقاضون منه أتعابا غير ضئيلة .

ومن جميل تقاليدهم – أن الطبيب كان يقتطع جزءاً من أتعابه يخص به المعبد الذى تلقى فيه علومه الطبية – وأشهر الأطباء المصريين « أيموحتب » – ومعنى هذا الاسم « الذى أتى سالما » وقال عنه « سيرويعام أوزلر » إنه أول شخصية طبية ظهرت فى التاريخ البشرى ، وهناك أيضاً مايدل على وجود مساعدين أو ممرضين أو متخصصين فى الأربطة والتدليك ، وكان يطلق عليهم اسم « أوت » وكان بعضهم للأحياء وبعضهم الآخر للموتى ، أى التحنيط .

المصريون القدماء – أصحاب علم الباثولوجيا – والميكروبيولوجيا :

إلى جانب هذا نجد أن الطب الفرعونى يبدو كأنه يحاول التحرر من السحر والتفكير اللاهوتى ليصبح علماً تجريبيًّا ، ولذا يمكن التمييز فى نظرتهم إلى المرض بين نوعين منه هما :

١ – الأمراض الخارجية .

٢ – الأمراض الداخلية .

ومازال هذا التقسيم مستعملا إلى يومنا هذا – إذ يسمى الفرنسيون الجراحة بالباثولوجيا الخارجية – والأمراض الباطنية بالباثولوجيا الداخلية ، والسر فى تمييزهم هذا هو نظرتهم إلى الصحة والمرض عَامَّة – فقد كانوا يعتقدون أن الروح خالدة لاتبلى إلابالقتل – وأن المرض لايحدث إلابتأثير عامل قاتل خارجى ، وهذا العامل إما أن يكون ظاهراً كالسلاح والنار ، أو خفيا ، ولما ظهر علما المكروبيولوجيا والكيمياء الحيوية ، جعلهم هذا التفكير المبنى على

السببية يعزون المرض الخفى إلى أرواح شريرة ، أو إلى أعمال سحرية أو إلى عقاب تفرضه الآلهة أو إلى ميت أو عدوّ .

وإذا ما بحثنا عن أصول الطب البشرى فإننا نجد أول عهد كل حضارة عَصْرَ إله ما ، أحاط بكل مافيه : من معالم وأحداث وأمن بتحكمه فى كل دقيقة من حياتها وبتدخله فى كل خطوة منها ، فخلق السحر أو الطب الفلكى – والطب الكهنوتى ومختلف ضروب العلاج الروحانى – حسب الصورة التى صورها هذا العصر للكون لمحاولة التأثير عليها .

– وقد اختلف علماء السلالات فى النمو الذى اتبعه الطب فى أول مرة فمنهم من رأى أنه بدأ علما تجريبيا تابعا لمقتضيات الحياة اليومية – وأنه لم يصطبغ بالطابع السحرى أوالدينى إلاعندما استيقظ ذهن الإنسان فبدأ يتأمل فيما يحيط به – ومنهم من قال على نقيض ذلك ، إن الطب بدأ بالسحر والشعوذة – قبل أن يصف الملاحظات الواقعية ، غير أن المصرى القديم على عكس الإغريق كان بعيدا عن التفكير فيما وراء الطبيعة – وعن النظريات الافتراضية – واعتمد فى تشييد حضارته على تكديس الملاحظات الواقعية – والاستفادة منها فأضاف بذلك خبرة عملية إلى فطنته الغريزية – سرعان ماأدتا إلى تناقض بين فى أساليب تفكيره لبناء مستقبله على رواسب متخلفة من الفكر العتيق ساعدت ماحققته نزعته التجريبية .

– ومن الواضح أن الاعتقاد المصرى الراسخ فى قوة السحر قد عاق من تقدم الوعى الثقافى عند الأمة – إذ مَنْ ذا الذى يجشم نفسه مشقة اتباع الطرق الطبيعية إذا كان يعتقد اعتقادا جازما أن فى مقدوره الوصول إلى نفس النتيجة عن طريق القوى السحرية والسماوية ولقد أمدنا طب المصريين القدماء بأمثلة

كافية فى هذا الشأن فإلى جانب التعاويذ الخاصة التى ينبغى أن تقرأ على العقاقير المختلفة لتكسبها القوة اللازمة ، فإننا نصادف أيضا استعمال الصيغ السحرية – مثال ذلك – عند نزع كل ضمادة كان من الواجب على المرء أن يتلو الصيغة الآتية :

« قد خُلص – قد خُلص بإيزيس » – لقد خلص حوريس بإيزيس من كل شر اقترفه أخوه « ست » نحوه عندما قتل أباه أوزوريس أى إيزيس أيتها الساحرة العظيمة خلصينى من جميع المساوئ الحمراء ومن مرض الإله ومرض الآلهة من الموت والموت – ومن الْعَدُو والْعَدوة اللذين يعترضانني -كما تخلصت أنت وكما ولدت ابنك حوريس لأنى دخلت النار وخرجت من الماء (Eb.I,1266.)

وعندما كان يتعاطى المريض دواءه – كان يقتضى الأمر تلاوة تعويذة مطلعها : « تعال أيها الدواء تعال واطرده من قلبى ومن أعضائى هذه فَالرق عظيمة المفعول فى الدواء » (Eb.2.1.ff.)

ومن المحقق أن الكثير من النظريات والآراء المختلفة كانت لدى الأطباء المصريين لأن عدد الصيغ السحرية التى وصلت إلينا محفوظة فى الكتب الطبية عظيمة الاختلاف والتنوع .

فى أحد نصوص متحف برلين مثلاً – نص يرجع أصله إلى عهد الهكسوس ويتعلق على الأخص بأمراض الأطفال – ولا يوجد إلى جانب ثلاث وصفات حقه إلاَّ رقى فحسب (Wreszinski, Medizin Band I)

وكان زمام الطب منذ الدولة القديمة فى أيدى أطباء متخصصين وصل إلينا بعض أسمائهم – فقد كان يعمل فى خدمة الملك « ساحور » كبير أطباء فرعون المدعو « نى عنخ سمخت » الذى سمعنا عنه فيما ورد فى التاريخ من الأسرة

الخامسة – ثم طبيب فرعون آخر اسمه «خوى» يطلق على نفسه كبير أطباء الوجه القبلى والبحرى – وفى الوقت نفسه فى متناول يد فرعون ، أى أنه ينتمى إلى بطانة الملك وعاش فى أواخر الدولة القديمة .

(Quibelle, Saqqara 1905, 06 Pl. 14 and p. 22.).

– وكان مشرفا على كهنة هرم الملك «تيتى» من الأسرة السادسة متعمقا فى (فن الأسرار) ، وغنى عن البيان أنه كان رجلا جليل القدر ذا مكانة عالية جدا ، كما أننا نعرف طبيبا باطنيا للملك أخناتون كان يدخل القصر ويخرج منه اسمه **بنتو** وكان بصفته من المعتنقين للديانة الجديدة «الخادم» الأول لآتون فى معبد آتون أيضا .

ولا تزال مقبرته محفوظة باقية حتى الآن فى العمارنة .

(Davies, Amarna 4, pl. I, ff. and p. I. ff.).

– ولاتحدثنا النقوش إلابالقليل عن نشاط الأطباء فهناك مقابر أخرى لأطباء من الدولة القديمة فيها وهنا يحضر أحد الأطباء القرابين الجنازية للزميل المتوفى .

(LD II. 9 I a, 92 cl. e.)

– فعندما أغمى على «واش بتاح» وزير الملك «نفرايركارع» من الأسرة الخامسة وفقد وعيه فجأة عند معاينة مبنى جديد فى حضرة الملك . استدعى الكهنة المرتلين (وكبار الأطباء) وأحضر صندوقاً به ملف كتاب – **ويعتبر هذا أقدم ذكر لوثيقة طبية فى مصر** – ولكن إرجاع المصرى لوصفاته الطبية فى العصر التالى المتأخر إلى العصور السحيقة الأولى أمر ورد ذكره كثيرا . بيد أنه لم يكن فى الاستطاعة عمل أية مساعدة طبية – فقد تداعى الرجل العظيم وهوى ولم يعد للملك إلا أن يعدم يلزم لمقبرته (Sethe. Urk I, 42; BARI, 243 ff.)

على أنه عندما تقدم لنا الرسوم « طبيبا لفرعون » فإننا نراه مشتغلا بأعمال لاتنتظر البتة أن تكون من اختصاص الأطباء – فهو يشرف على إحضار وذبح حيوانات التضحية ويتيقن من نظافتها .

—(Borchardt, Kunstwerke 22, Murray, Saqq. Mast. I, Pl. II).

— (Paget and pirie, Ptahhetep, Ph. 36 and Davies, Ptakhetep, II, Pl. 18; Barchardt, Sahure II, Pl. 55 and p. 123.)

– قد يكون الأمر هنا متعلقا بأطباء بيطريين (زيتة) .

وقد نشر جريفث . (Griffith, Kahun, Payri, Pl. 7.)

بقايا ورقة بردية طبية بيطرية من الدولة الوسطى .

أويَظْهر وفى يده زوج من الأوز بين حاملى القرابين – فى حين تجرى فى نفس المقبرة التى وجدنا فيها المثال الأخير الذى أوردناه عملية جراحية كالختان مثلا – لايقوم بها طبيب بل « خادم كا » (Capart, Rue, Pl. 35 and 36.)

– ولقد وجد (ستانج) غرفة دفن سليمة تماما فى بنى حسن لأحد أطباء الدولة الوسطى واسمه (نفرى) ولقد غطى التابوت الداخلى والخارجى بنقوش وكتابات دينية ووجدت أشياء كثيرة ودقيقة فى حالة حفظ جيدة جداً . على أنه باستثناء لوحة كتابة خشبية وأدوات الكتابة المعروفة – فإنه لم يوجد بينها – مع الأسف – شىء يمكن أن يزودنا بمعلومات واضحة من عمل الطبيب ، لأن الكيس الكتانى الذى كانت توجد فيه « الأزميل » والبلطة والمثقاب ومجلاة الخشب (فارة النجارة) والمنشار تتفق فى الرأى مع (جارستانج) فى أنها أقرب إلى أن تكون الأدوات التى صنع بها النجار التوابيت الخشبية من أن تكون **أدوات نفرى** الطبية . (Garstang. Burial Customs. 65 ff.)

– وكان الأطباء كالكتاب والعلماء يوقرون (تحوت) إله الحكمة والكتابة الهروغليفية Ebers. I. 9 كما أن الإلهة «سخمت» ذات رأس لبؤة – وكان يعتبر ابنها **ايموحتب** فيما بعد كمكتشف لفن العقاقير : راجع :

Sethe : Imhotep. der Asklepios der Aegypter. Unters. II. 4, 1902.

وكانت أيضا ربة حامية لهم – راجع Ebers 99. 2 – وكان الطب شأنه فى ذلك شأن جميع فنون الحكمة والكتابة المصرية – يتصل اتصالاً وثيقا بالدين وعقلية الكهنة – ومحاولة دلالته – فى هذا المقام على تلك الألقاب الإضافية لمن نعرفهم من أطباء يتسمون أحيانا بأنهم كهنة لمختلف الآلهة وأحيانا «أوعب» و«مشرفين» على كهنة الأوعب . وفوق ذلك فهناك أدلة أخرى ، فعندما يقول مؤلف **ورقة ابرس** البردية المشهورة فى مستهل كتابه إنى قد تخرجت من هليوبوليس مع أمراء البيت الكبير سادة الحماية وحكام الأبدية . . إنى قد تخرجت من «سايس» فى صحبة أمهات الآلهة ولقد أعطينى حمايتهن . . وذلك لكى أطرد جميع الأمراض . . إلخ . فإن الاستنتاج لا يكون على شىء كثير من الغلو والجرأة عندما نفترض وجود المدارس الطبية الشهيرة فى هليوبوليس وسايس . وتعمم هذا عن «سايس» على وجه التحقيق ونص كان شيفر (AZ. 37. (1899) 72. ff.) أول من فهم على صحته – وهذا النص يشهد بإعادة تنظيم مدرسة الطب فى عصر الملك «**دارا الأول**» ويشهد بالتطور أيضاً **بمعابد أتوم ونيت** (فى الوجه البحرى وهى مقر لأقدم ثقافة مصرية) . وهى التى أراد هذا الطبيب أن يرجع حكمته التى اكتسبها إليها . ذلك لأن ما أنتجته وخلفته هذه المدارس الطبية فى زمن قديم جداً فى المعارف الطبية اتخذ أساساً لطب العصور التالية كلها .

كما يبدو أن أطباء الدولة الحديثة فيما يختص بنظرياتهم عن تركيب الجسم لم يتقدموا كثيرا وقد بقى كثير من أصول النصوص الطبية من عصر الدولة الوسطى وخاصة من الدولة الحديثة . وهذه النصوص الطبية المصرية – تولّى نشرها مع الترجمة والتعليق (فرشنسكى) .

(W. Wreszinski "Die Medizin. der Alten Aegypter").

منذ عام ١٩٠٩ – وقد ظهر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء :

– ولفرشنسكى بحث آخر منشور فى Medizin Klinik عام ١٩١١ أرقام الأعداد ٢٠ – ٢٢ وبقى من نصوص البردية الطبية من عصر الدولة الوسطى – وخاصة من الدولة الحديثة ومن بينها ملفان سليمان محفوظان الآن بمجموعات المتاحف الألمانية وأحدهما وهو **البردية الطبية الكبرى** بمتحف برلين وهى عبارة عن ملف سهل للاستعمال اليومى – يمكن اعتبار صاحبه طبيباً . متمرناً لطول تجاربه العملية .

– أما الآخر الذى دخل فى حوزة مكتبة « جامعة ليبزج » بفضل « جورج ايبرس » فيضم كتابا تعليميا للطب المصرى يمكننا أن نتصور أنه كان محفوظا بمكتبة مدرسة طبية . ولقد اعتمدنا فى سرد الحقائق التالية أكثر ما اعتمدنا على ورقة « إيبرس » البردية .

– وكانت معلومات المصريين فى علم التشريح – على ماتبينها هذه النصوص الطبية ضئيلة بشكل يعدّ أضأل بكثير مما كنانتصور من قوم كانوا يفتحون الجثث كل يوم – ويجب علينا ألانغفل تلك الحقيقة وهى أنه فى **فن التحنيط** لم يكونوا يفتحون إلاالبطن – أماّ جانب تركيب العظام والأحشاء الكبيرة مثل القلب والمعدة والطحال ونحوها ؛ فإن المصريين القدماء لايكادون يعرفون شيئا عن

الجسم البشرى ، أما معلوماتهم بالأوعية - تلك المعلومات التى كانوا يعرفونها هامة إذ كانت لديهم بمثابة « سر الطبيب » (Eb. 99. I.) . تحمل طابع الخيال والاختراع الصرف - وهذه الأوعية تقابل على الأخص الأوردة الكبيرة ، وبخاصة وريد النبض ، ولكن لما كانت تحمل الماء والهواء وغيرهما فإنهم فيما يظهر كانوا يحملون كلماتهم معانى واسعة جدا ، وعلى أى حال فإن المصريين كانوا يعرفون أن الأوعية تجرى من القلب إلى سائر أعضاء الجسم . والقلب هو نقطة التقائها . - « ففيه أوعية تُفْضِى إلى جميع الأعضاء ، فإذا ما وضع الطبيب أصبعه على الجبهة أو الجزء الخلفى من الرأس أو على اليدين أو على مكان القلب ، فربما كان هذا يعنى النبض ؟ أو على الذراعين أو الساقين فإنه يقابل دائما القلب لأن أوعيته تؤدى إلى جميع الأعضاء . وهكذا فهو يتحدث فى أوعية جميع الأعضاء . هكذا قال الطبيب المصرى القديم (Eb. 99. I. ff.) .

- بيد أن المصريين كانوا لايعرفون إلاالقليل عن موضع الأوعية المختلفة فإن كتيباً قديما عن هذا الموضوع يقرر وجود اثنين وعشرين منها تجرى مزدوجة نحو الصدر والساقين والجبهة والأجزاء الخارجية الأخرى للجسم .

(Eb.I. 03, I, ff. cf. Shafer, AZ, 30, 35 ff.)

- وفى كتاب آخر ورد ذكر ستة وأربعين منها ، بعضُها يؤدى إلى الاحشاء ويغلب على الظن أن هذا الكتاب يمثل لنا مَاجدّ على النظرية القديمة من تنقيح ولو أنه لايزال يخدم كثيراً من الشك حول أعتماد هذه النظرية على الملاحظة الدقيقة . (Eb. 99. I ff. Schaefer, Az 30, 107 f.)

- **ونظرية الأوعية هذه** ذات أهمية خاصة فى الطب المصرى - فكثير من الأمراض العصبية والنفسية (وهى أمراض المفاصل) كانت بحسب الأفكار

المصرية متوقفة على الأوعية ، فهى تنسد وتصيبها الحرارة وتَيْبَس وتصيبها الحكة وتكون فى حاجة ضرورية إلى تقويتها أو تهدئتها ، وربما لا تمتص الدواء ، وهذه أمراض كان على الطبيب أن يعالجها باللاصقات (اللزق) والدهون والمراهم (Eb. 79, 5-86, 3.)

– وكان الأطباء المصريون يعتقدون عادة أنهم يستطيعون بكل سهولة أن «يروا» ما يؤلم مرضاهم ، ومع ذلك فإن الكثيرين كانوا يدركون أن **المعرفة الدقيقة للمرض هى أساس العلاج** ، ومن ثم فإننا نجد أحيانا تشخيصا دقيقا كالمثال التالى : يقول الطبيب المصرى القديم من واقع ملاحظاته :

إذا وجدت شخصا بعنقه ورم وعنده ألم ، فى عضلتى عنقه وفى رأسه ، وعموده الفقرى متصلب وعنقه يابس بحيث لايستطيع أن يخفض بصره ليرى بطنه . . إذن فقل : إن بعنقه وَرَماً وصف له الدهان يتدلك به فيشفى فى الحال : (Eb. 36, 4—43, 2.)

– أو فى حالة مريض بالمعدة فيقول : فإذا وجدت شخصا لديه إمساك . . ووجهه أصفر ، وقلبه يسرع بالنبض ، ووجدت عند فَحْصِه أن بقلبه حرارة وببطنه انتفاخا فإن هذا يكون قرحة حدثت بسبب أكل أشياء حارة فحضِّر له دواءً يغسل هذه الأشياء الحارة وشراباً يفرغ الأمعاء – وانقع جعة ، حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ودعه يأكل ويشرب ذلك لمدة أربعة أيام ، ثم قم فى كل صباح وانظر إلى ما يخرج شرجه ، فإذا كان ما يتبرز به يشبه النواة السوداء ، فقل : إن هذا الإلتهاب زال أما إذا فحصته بعد أن تكون قد فعلت هذا ووجدت أن ما يخرج منه يشبه الفول يغطيه الندى ؟ فقل عنه «**إن ما كان فى معدته قد زال**» (Eb. 42, 8 ff.) .

– وكانت هناك إمساكات أخرى للمعدة لكل منها أعراضها وتحتاج بطبيعة الحال إلى علاج آخر مثل حالة أولئك الذين يشعر الطبيب عند وضع أصابعه على معداتهم أنها **تتحرك هناوهناك مثل تحرك الزيت فى القربة** (Eb. 40, 1)

أو فى الحالات التى يقىء المريض فيها ويشعر بأنه « مريض جداً »

(Eb. 40, 15.)

أو فى الحالات التى يكون البطن فيها « مرتفع الحرارة ومنتفخا »

(Eb. 42, 10.)

فإذا ما تم تشخيص المرض يبدأ تفضيل أى نوع من الأدوية المختلفة يقتضى اختياره ، إذ إن عدد الوصفات فى مستهل الدولة الحديثة كان قد تضاعف إلى حد أنه أصبح لبعض الأمراض عشرات الأدوية يختار من بينها الطبيب ما يشاء .

– بيد أننا عندما ننعم النظر فيها قليلا نرى أن هذا الفيض من الوصفات يتحدد نطاقه ويضيق فبعض هذه الأدوية كثير وكانت لاتستعمل إلافى فصول خاصة من السنة ، فمن ضمن الوصفات الخاصة بالعين نجد وصفة يقتصر استعمالها فى الشهرين الأول والثانى من فصل الشتاء وأخرى تستعمل فى الشهرين الثالث والرابع – وثالثة ذكر قصدا أن استعمالها جائز خلال فصول السنة جميعا (Eb. 61. 14. 46.) .

وكان الطبيب غالبا مايدخل فى حسابه سن مرضاه . فعند **انحباس البول** يتناول الكبار مزيجا من الماء الآسن وراسب الجعة ، والبلح الأخضر وبعض الخضراوات الأخرى – على أن تكرر الجرعة أربع مرات – أما الأطفال فإنهم لايتعاطون هذا الدواء وإنما يستعملون قطعة قديمة من بردية مكتوبة تنقع فى

الزيت وتوضع كلفافة ساخنة حول البطن . (Eb. 48. 22.)

– كما أنه كان هناك فارق يجب مراعاته بين طفل وآخر – فنحن نقرأ فى مكان : « **إذا كان الطفل كبيرا فإنه يأخذ حبوبا ، أما إذا كان لايزال فى مهاطه فتذاب الحبوب من لبن مرضعته** » (Eb. 42. 22.)

– وفى الحالات الأخرى – عندما كانت تراعى مثل هذه الفروق فإن الطبيب لم يكن يجد فى أغلب الأحيان صعوبة كبيرة فى الاختيار . إذ إن الوصفات كانت تتفاوت درجاتها من حيث الجودة – على أن الطبيب ربما يكون قد اختبر الكثير منها فى تجاربه العملية وكتب جير بجوارها فى كتاب وصفاته . (Eb. 35, 18. 41. 7.)

– وربما وضع بعض زملائه القدامى مثل هذه الملاحظات على هوامش كتب وصفات أخرى مثال ذلك « جيد » لقد رأيته وطالما صنعته أيضا » أو ربما نجح معى » (Eb.. 69, 17)

انظر هذا دواء حقيق وجد عند فحص محفوظات معبد أون نفرى . (Eb. 75. 12.)

– وكانت ترجع شهرة بعض الأدوية المستفيضة إلى شفاء شخصية معروفة فى الزمن القديم . (Eb. 63.4.66.15.)

– وبعضها الآخر إلى أصلها الأجنبى . فمثلا كان يوجد مرهم للعين قيل إن الذى اكتشفه هو **سامى من جبيل** « بيلوس » – فكان يقدره المصريون كدواء فينيق . شأنهم فى ذلك شأننا نحن فى تقديرنا للمستحضرات الأمريكية والأجنبية فى الوقت الحاضر (Eb. 63, 8.) .

– ومن الطبيعى أنه لم يكن ينقص المصريين أدوية تشفى كل شىء قالوا عنها

إنها تطرد الموت ذكرا وأنثى – والألم ذكرا وأنثى – من كل أعضاء الإنسان فيشفى لوقته وساعته . (Eb. 48. 10--47. 10.)

– ولم تكن هذه الأدوية العجيبة مما ابتكرته حكمة البشر ؛ وإنما اخترعتها الآلهة المختلفة نفسُها **لإله الشمس** رع الذى شفى فى شيخوخته من ضروب الأمراض والأوجاع قبل أن ينسحب إلى راحته السماوية . وعلى أنه بالرغم من أصلها الإلهى – فإنها لاتختلف فى تركيبها عن الوصفات الدينية – فأحدها مثلا يتألف من العسل والشمع وأربعة عشر نوعا من المواد النباتية تمزج بكميات متساوية ويعمل من هذا المزيج لاصقة (لزقة) .

– ولقد اعتقد الكثيرون أيضا فى أن دواء جميع الأمراض قد وُجِد فى نبات خاص مثل نبات « دجم » الذى ربما كان **زيت الخروع** – ولقد كتبت **عن أوصافها فى كتاب قديم لمنفعة البشر** – إذا مانقعت جذوره فى الماء حتى تذوب ووضعت على رأس المريض فإنه يشفى فى الحال كما لم يكن مريضا من قبل ، فإذا كانت الشكوى من عسر الهضم فدع المريض يمضغ بعضا من ثماره مع الجعة فيطرد هذا المرض من جوفه ولنمو شعر المرأة « يدق ثماره وتعجن حتى تصير كتلة يجب على المرأة أن تنقعها فى الزيت وتدهن رأسها بها .

(Eb. 47. 15. ff.)

– وعلى الرغم من هذه المزايا التى يشيد بها « الكتاب القديم » فإنه يبدو أن نبات « دجم » لم يلعب دورا كبيرا فى الطب فنحن لانجده فى الوصفات إلانادرا نسبيا .

– وتكاد تحضر معظم العقاقير المستعملة من النباتات والفاكهة والأعشاب الكثيرة وكانت معرفتها معرفة جيدة من الأمور الأساسية بالنسبة لكل الأطباء

المصريين ، ومع ذلك فإن نباتات كثيرة كانت نادرة جداً حتى إنها كانت غير معروفة للطبيب المصرى ولذلك كان يُضمِّن وصفة العلاج شرحا لها كالآتى : الأعشاب المسماة «سحوت» وهى على بطنها (أى تزحف) مثل نبات كرت ولها زهور مثل اللوتس ولأغصانها شكل الخشب الأبيض (Eb.5T.15) .

- أما المواد التى ترجع إلى أصل حيوانى فهى أندر ، ويظهر أنهم كانوا يفضلون بعض المواد التى تشمئز منها نفوسنا الآن اشمئزازا كبيرا خاصة أن الطب المصرى ، شأنه فى ذلك شأن كل طب شعبى كانت تسيطر عليه تلك الأفكار التى تقول بأن الدواء يجب ألا يكون بسيطا أو عاديا فالوصفة ينبغى أن تحتوى على كثير من المواد إن أمكن – وفى واقع الأمر توجد لاصقة – تتركب من ٣٧ مادة مختلفة (Eb, 82,22.) .

– وكان من الضرورى – أن تكون المواد نادرة ومنفرة إن أمكن ، فدم الضب وأسنان الخنزير واللحم النتن والدهن الفاسد والعفن ، وإفرازات أذان الخنازير ولبن المرأة الحائض ، ومئات من أمثال هذه الأشياء كانت عناصر مألوفة . وخاصة مواد معينة يقدرونها لخواصها الشافية كانت هى بعينها التى يقدرها صيادلة القرن السابع عشر تقديراً عالياً ألا وهى الإفرازات بجميع أنواعها .

– على أننا فى الواقع نرتكب خطأ ذريعا إذا ما حاولنا أن ننتقص من قدرة الطب المصرى ونقلل من نجاحه كوسيلة للشفاء لسبب مايحويه من مثل هذه المضحكات – فحتى مع هذه الوصفات التى أوردنا ذكرها فيما سبق فإن العلاج الحسن يمكن أن يتم إذا افترضنا وجود مادة واحدة ذات مفعول حسن بين عناصر لامعنى لها ولاضرر منها – وفى كثير من الوصفات يمكننا أن نجد مثل هذه

المادة المفيدة وتكون فى العادة شيئا عاديا جدا مثل العسل أوالجعة أوالزيت .

– وفى بردية أدوين سميث يرى برستد أن هذا **الجزء من البردية أقدم ما كتب فى الجراحة فى العالم** كما أن المختصين فى تاريخ الطب يعتبرونه نقطة التحول بين فن العلاج وعلم الطب لأن محتويات هذه البردية تثبت أن مؤلفها لم يكن شخصا يؤمن بالسحر أوالكهانة ، لكنه كان طبيبا يراقب مرضاه الليالى الطويلة ويرقب ويبوب مايلاحظه عليهم أثناء المرض ، بل إنه كثيرا ما كان يشرح الجسم بعد الوفاة لمعرفة السبب .

– وهكذا كانت المدارس الطبية المتخصصة فى زمن الفراعنة المصريين وابتكارهم ونبوغهم فى المعارف الطبية مما صنع أساسا لطب العصور التالية كلها كما يبدو أن أطباء الدولة الحديثة فيما يختص بنظرياتهم عن تركيب الجسم وعلم وظائف الأعضاء فقد تقدموا شيئا ما .

– وقد تعمق المصرى القديم **فى طب أمراض النساء** وبرع فيه فكان نطاقه بطبيعة الحال فى مصر القديمة واسعاً كما هو الشأن فى جميع البلاد الأخرى ، وتحدثوا عن الألم ولم ينسوا رضيعها فنحن نعرف أنه منذ المعرفة الأولى يمكن أن يتنبأ الإنسان بحظ حياته ، فإذا صرخ «بى» فإنه يعيش . أما إذا صرخ «مى» فإنه يموت ! ونعلم أيضا كيف كان فى الإمكان معرفة جودة لبن الأم من رائحته . وكيف يستطيع الإنسان زيادة لبن الأم المرضعة – وأن هناك وصفة كانت تعطى لتهدئة صراخ الأطفال الكثير وكان الدواء الذى يحقق هذه المعجزة مزيجا من بذور نبات **شبن ووسخ الذباب** وكانت المادة الثانية لافائدة منها بطبيعة الحال . . أما المادة الأولى فربما كانت ناجحة المفعول وخاصة إذا كان نبات **شبن** وهو نفس النبات الذى يستعمل الآن فى الصعيد لتنويم

الأطفال ألاوهو **نبات الخشخاش** أبوالنوم .

– ومن العجيب أن سكان مصر الحالية قد حافظوا على كثير من هذا الطب المصرى حتى يومنا هذا . .

● **فبالرغم** من أن قرونا قد تعاقبت وأن البلاد قد مرت بكثير من التحولات وبالرغم من أن اللغة قد تغيرت مرة واحدة والديانة مرتين . **وبالرغم من هذا كله فإنه لم ينس بعد أن إفرازات الكلاب وعظام السمك هى أدوية ناجحة** .

– والمصريون القدامى – كانوا يستعملون ضد جميع أنواع السحر وصفة محددة تقول : « **جعل جعران كبير يقطع رأسه وأجنحته ويغلى ويوضع فى الزيت ويخرج** . . ثم يطبخ رأسه وأجنحته وتوضع فى دهن أفعى وتغلى ويسقى المريض من هذا المزيج .

والآن عندما يريد المصرى الحالى أن يشفى (البواسير) فإنه يأخذ خنفسا سوداء ويغليها فى الزيت ثم ينزع أغنفة الأضحية والرأس ويرطبها على نارخفيفة فالوصفة هى هى . . بعينها فيما عدا **دهن الأفعى** فإنه استبدل هنا بالزيت العادى . .

● **والأغرب من هذه الأمثلة تلك الخرافات التى انتشرت وذاعت فى أوربا** :

– فى البردية المصرية القديمة المحفوظة بمتحف برلين وصفت الحية الثالثة للتيقن مما إذا كانت المرأة ستحمل أم لا . . « البطيخ » ؟ يدق وينقع فى لبن امرأة حملت ولدا . . دع المرأة تأكله فإذا تقيأته فإنها ستلد . أما إذا انتفخ بطنها فإنها لاتلد » .

فهذه الوصفة المصرية الغريبة نفسها ذكرها **هيبو قراط** نقلا عن المصريين القدماء « خذيتنا » أو نبات **بتروس ولبن** امرأة حملت ولداً واجعل المرأة تشربه

فإذا قاءت فإنها ستلد . . أما إذا لم تقيء فإنها لاتحمل » .

– فهذه الوصفة لاتوجد حقا عن « هيبو قراط » ولكنها قد انتقلت بطريقة ما إلى أوربا .

– فى كتاب جرىء يرجع عهده إلى القرن السابع عشر يقول **بيتربوبيه** . أحدث حفرتين فى الأرض وضع شعيراً فى إحداهما وقمحا فى الأخرى ثم اسكب فى كلتيهما بول المرأة الحامل وأهل عليهما التراب ثانية فإذا مانبت القمح قبل الشعير فسيكون ولدا . . أما إذا نبت الشعير أولا . فيجب عليك أن تنتظر بنتا .

– كما أنه يوجد كتيب إنجليزى مطبوع فى إنجلترا عنوانه **القابلة الخبيرة** تظهر فيه هذه الوصفة المصرية القديمة بشكل يدخله شيء من التحوير . . وهكذا نرى أن حكمة المصريين القدماء قد وجدت ملجأها الأخير عند **شيفرتوماس** وزملائه وهذه الوصفة تعتمد قبل كل شيء على **بردية ايبرس** الطبية المصرية ، ويرد ما يشبهها تماما فى نصوص بردية برلين الطبية المصرية وبردية هرست المصرية بجامعة كليفورنيا .

– ومن تفنن المصريين القدماء فى رسم طرق العلاج – منهم أول من استعمل اللبخات المحتوية على أكسيد الرصاص ، كما ذكر ذلك فى الوصفة نمرة « ١٩١ » من قرطاس هيرست المصرية القديمة .

– واستعملوا الحقن الشرجية المسكنة المحتوية على منقوع الخشخاش – كما ورد فى الوصفة نمرة (١٦٤) من قرطاس ايبرس المصرية .

واستعملوا الدوشات للرحم من عقاقير نباتية منقوعة فى لبن البقر . . وكذلك (اللعوقات) لالتهابات اللسان والزور .

– والمصريون القدماء – هم أول من عرفوا خواص المسهلات وقسموها إلى

فرق وأول من استعملوا (الدهنات) العطرية لإزالة الروائح الكريهة من جسم الإنسان وإليك وصفة من أهم مستحضراتهم لتعطير فم السيدات :

« مر ناشف و كندر » و ماستكة و ينسون و دراصوص بكميات متساوية تطحن جيدا وتمزج ثم تعجن ، وكان لملوك الفراعنة ولع شديد باستجلاب النباتات الطبية وغيرها من البلدان الأخرى .

– وقد وجدت بعض النقوش فى معابد الدير البحرى – تذكر أن **الملكة حاتشبسوت** أرسلت عام ١٧٠٠ ق . م . بعثة إلى بلاد الصومال (**بونت**) استجلبت ٣٠ شجرة من المرّ لتزرع فى طيبة وكذلك تذكر بعض النقوش أن الملك **تحوتمس** أوفد الكثير من البعثات لاستجلاب أصناف من النباتات من سومطرة .

– وأيضا الحقن والتخدير الموضعى من ابتكار المصريين القدماء :

فالحقن اختراع مصرى قديم وكان الكهنة المحنطون يستعملونها فى أغراض أخرى مما ظهر لنا أثناء دراسة القراطيس الطبية المصرية . مثل إدخال السوائل فى الرأس وفى التجاويف الأخرى فى الجثة .

ولمعرفة الأدوية التى كانت مستعملة عند الفراعنة المصريين ، فى التخدير نرى **أن بلينى** قال : إنهم استعملوا ما كانوا يسمونه **موفيتيس** وهذه حين تسحق وتمزج بالخل تخدر موضعها حتى إنه قد يقطع ويكون دون ألم . . وقد أشاد **ديوسكوريد** إلى نفس الأمر وذكر أن حجر **ممفيس** الذى يحتوى على هذا المسحوق كان دَسِم الْمَلْمَس ذا ألوان مختلفة – وبعد أن كان مشهورا بمنافعه نسى وبطل استعماله . .

- ومن الممكن تفسير هذه الظاهرة بأن **العلوم الحديثة** أبانَتْ عن الفعل المخدر **لحمض الكربونيك** ولما كان الرخام مركبا من كربونات الكالسيوم وهذا يتأثر بحمض الخليك الموجود فى الخل - فالمصريون القدماء استعملوا الرخام المسحوق من ممفيس وأضافوا إليه الخل ، وبذلك استطاعوا أن يستفيدوا من **تأثير حمض الكربونيك** الناتج عن التفاعل الكيماوى أثناء صعوده فى إحداث **التخدير الموضعى** .

هكذا كان المصريون القدماء من أكثر من سبعة آلاف سنة عرفوا الطب وفروعه على أساس علمى **متخصص** سبقوا به العالم أجمع وعلموا العالم القديم كيف يداوى الأمراض ويحافظ على صحة أهله .